الأنا المتعالية والمتحدية في شعر الجواهري

ا.د حسام حمد جلاب — احمد عبد الجبار خليل

جامعة القادسية / كلية التربية — رئاسة جامعة القادسية/الشؤون الادارية

تاريخ الطلب: ١٦/ ٨/٢٠٢٣

تاريخ القبول: ٢٠/ ٩/٢٠٢٣

الملخص :

يعد الجواهري من الشعراء الذين نحو بالكلمة منحى فنيا جماليا ، جعله خاضعا لموجهات سياسية خاصة ، فجاءت المؤثرات السياسية والاجتماعية والإنسانية وحتى القومية ، لتجعل منه شاعرا متصفا بالتحدي والتعالي ، والبحث هو محاولة جادة لدراسة تمثلات الأنا المتعالية والمتحدية في شعر الجواهري ، بحيث نبدأ من النص ونعود إليه ، على وفق نماذج شعرية نحاول من خلالها الكشف والرصد ومن ثم التحليل .

Abstract

Al-Jawahery is one of the poets who turned the word into an artistic and aesthetic direction, making it subject to special political orientations, so political, social, humanitarian and even national influences came to make him a poet characterized by challenge and transcendence .the research is a serious attempt to study the representations of the transcendent and defiant ego in Al-Jawahery's poetry, so that we start from the text and return to it, according to poetic models through which we try to detect, monitor and then analyze.

مدخل :

يعد الوقوف على المفاهيم والمصطلحات ضرورة منهجية في كل بحث علمياً كان هذا البحث أم إنسانياً, ففهم المصطلح وتحديد المفهوم يسهل عملية فهم الأشياء فهماً دقيقاً , ينتفي مع الفهم التداخل المعرفي بين المصطلحات الذي يفضي بدوره الى نتائج غير دقيقة , لذلك عرف الاهتمام بالمصطلح قديماً في الغرب من لدن اليونان والفلاسفة ومن اشتغلوا بالمنطق عندهم قديماً، نجد أنّهم اعتنوا بهذا أيضاً فيما وقف عليه أفلاطون وسقراط وأرسطو وغيرهم على السفسطائيين إلاّ من جهة لما استعملوه من ألفاظ اصطلحوا عليها

في غير ما أريد بها، أوجدوا مصطلحات كانت حسبهم سبب في تغير تَوجه النّاس وسلوكهم منها ما جاء في كتاب أفلاطون الذي نَاظَرَ فيه سقراط زعيم السفسطائيين ومعلمهم (بروتاجوراس) حول (الفضيلة) ، فقد اختلف معه في مفهومها [١]

ومع (فرويد) بدأ البحث عن الظاهرة النفسية داخل النص الأدبي، فتم تأسيس مدرسة تعنى بها الجانب تعرف بمدرسة التحليل النفسي التي بدأت تفسر السلوك البشري من خلال العودة به الى منطقة اللاوعي، ومن خلال هي العملية تم تحديد الإطار النظري والعملي للمنهج النفسي فصار المنهج النفسي يعرف بأنه ((المنهج الذي يخضع النص الأدبي للبحوث النفسية، ويحاول الانتفاع من النظريات النفسية في تفسير الظواهر الأدبية والكشف عن عللها وأسبابها ومتابعة الخفية وخيوطها الدقيقة وما لها من أعماق وأبعاد وآثار ممتدة)) [٢]

فقد رأى فرويد أن العمل الأدبي موقع أثري له دلالة واسعة، ولابد من كشف غوامضه وأسراره، فالإنسان يبني واقعه في علاقة أساسية مع رغباته المكبوتة ومخاوفه، ويعبر عنها في صورة سلوك أو لغة أو خيال [٣]، ويرى أن اللاشعور أو العقل الباطن، فهو مستودع للرغبات والدوافع المكبوتة التي تتفاعل في الأعماق بشكل متواصل ولكن لا تطفو إلى مستوى الشعور إلا إذا توافرت لها الظروف المحفزة لظهورها، فالأدب والفن عنده ما هما إلا تعبير عن اللاوعي الفردي [٤]

المبحث الأول : الأنا المتعالية :

يشترك الشعراء أينما كانوا وفي أي زمان باتصافهم بالنرجسية وتضخم (الأنا)، ولكنهم يختلفون في درجتها وتمظهراتها، فقد تكون خفية عند بعضهم، وقد تكون ظاهرة طاغية عند الآخر.، ومهما يكن من أمر هذا الاختلاف تظل النرجسية من المكونات البارزة للشخصية الإبداعية للشاعر. إن كل من يقرأ شعر الجواهري يلمس بوضوح شبها كبيرا بينه وبين المتنبي، من هذه الزاوية، فكلاهما عبر عن الشعور بالتفوق في أكثر من موضع [٥]

غير أن (أنا) الجواهري أكثر تعقيدا، فبينما نجد (أنا) المتنبي شديدة الوضوح في تضخمها وتلبسها بحالة التفوق، تتخذ (أنا) الجواهري أشكالا عدة، متداخلة ومعقدة أحياناً، وإن كانت جميعها تعود في النهاية الى فكرة التفوق. ونحاول في هذه المقالة استقصاء أشكال (أنا) الجواهري وتصنيفها [٦]

يتبجَّحُونَ بأنَّ مـــــــوجاً طاغيا سَدُّوا عـليهِ مَـنافذاً ومَساربا

كَذِبوا فملءُ فمِ الزّمان قصائدي أبداً تجـوبُ مَشارقاً ومغاربا

تستَلُّ من أظفارِهم وتــــحطُّ من أقدارِهــمْ ، وتتلُّ مجداً كاذبا

أنا حتفُهم ألِجُ البـــــيوتَ عليهم أُغري الوليدَ بشتمهمْ والحاجبا

خسئوا : فَلْمْ تَزَلِ الرّجولةُ حُرَّةً تأبى لها غيرَ الأمائِلِ خاطــبا [٧]

لقد دل التوظيف الدلالي لضمير المتكلم (**أنا**) على ذات متمردة ورافضة ومتحدية في الوقت نفسه , عرضها مجتمعة برؤية ومنهج صدامي لا يخشى العواقب ولا يبالي بالنتائج وعلى هذا كان انتقال الشاعر من الغيبة إلى التكلم مقصودا في قوله الشعري المتقدم ، فلغة التكلم أقوى وأكثر إظهاراً لمشاعر النفس الإنسانية، وقد أراد الشاعر من خلالها إظهار مشاعر الغضب التي أخذت تتفجر في نفسه ، ولاسيما في تلك المدة التي عاشها عند كتابة قصيدته هذه، وكان أحد الدواعي إلى كتابتها الأزمة النفسية التي مرّ بها الشاعر, بسبب من حالة الفقر التي وصل إليها , لما حاصره الحكام , لمواقفه الوطنية الثائرة، فقرر الشاعر أن يرفع صوته، لتقريعهم , داعيا للإجهاز إلى الثورة ضدهم [٨]

ومنه قوله :

أنّي أظلُّ مـع الرعيـَّةِ مُرْهَقاً أنّي أظلُّ مع الرعيّةِ لاغبا

يتبجَّحونِ بأنَّ موجـاً طـاغيـاً سَدُّوا عليه منـافذاً ومَساربا

كـَذِبوا فملءُ فمِ الزَّمانِ قصائدي أبداً تجوبُ مَشـارقاً ومَغاربا

آليتُ أقْتَحمُ الطغاةَ مُصرّحـاً إذ لم أعَوَّدْ أنْ أكونَ الرَّائــبا

وغرَسْتُ رجلي في سعير عذابِهم وثَبّتُّ حيثُ أرى الدعيَّ الهاربا[٩]

وجاء تكراره عبارة (**أني أظل مع الرعية**) متناغما مع الإحساس الجماعي , بل خلق تطورا في هذا الإحساس , لأنه قد أحدث عمقا دلاليا ينسجم في تلقائية مع ذاته المتمردة وصولا إلى الغاية , التي لا تتحقق إلاّ بالعمل الجماعي المتضامن . وقد تحقق له ذلك من خلال تكرار الأسماء المشتقة (ساغبا ، مرهقا ، لاغبا), ليمنح مضمون النص أبعادا حسية للمعاناة, فيخلق منها هذا المجد الشامخ (للجوع) . فالبطولة تتلمس مواضع الحس الفني عنده ويشغل المحتوى الثوري أوسع مراكز الإثارة لديه [١٠]

وكانت عبارة (**أني أظل مع الرعية**) عن عمق الالتزام الكامن في المنجز الشعري للجواهري على صعيد ارتباط المصير الذاتي بالجماعي , بعلاقة مترابطة ومتماسكة ضمن رؤية كلية شاملة لا تنطلق بقراءتها التحليلية من معاناة الفرد وهموم الذات بل جعل همومه تلك منصهرة في ميدان أوسع واكبر حيث

(المجتمع), ولكن هذا الارتباط الروحي لم يكن محددا بزمان أو مكان , بل التزام اكسب ديمومة وتلازما بقرينة الفعل (أظل) الذي أثرى النص بمدلول يحمل التمازج المستمر, الذي لازمه طول حياته , متخذا من ذلك منهجا ورؤية حددت مسار منجزه الشعري , حتى أصبح هوية له تميز النص الجواهري عن بقية النصوص الشعرية الأخرى في الشعر العربي المعاصر.

المبحث الثاني : ((الأنا المتحدية)) :

إذا كان الشعر منجزا إبداعيا يحاكي الذات ويكشف عن مكنونات النفس وخباياها بطريقة فنية جمالية ,فإنه تمرّس بالحياة , وأثر من آثارها عند الشاعر , وعلى ذلك فلا مندوحة له من أن يلامس مشاكلها , وأنْ تأخذ تلك المشاكل طريقها إليه , بحيث تجعل الشاعر يعنى بها كما يعنى بها صاحب الفكر, مع بفارق , أن صاحب الفكر يصوغها بصورة مفاهيم مجردة , متوخيا الاهتداء إلى سبل حلها . في حين الشاعر يعمد إلى صياغتها صياغة فنية مبنية على جملة من المجازات , من غير أن يسعى إلى توخي حل لها , فيكفيه أن يحيط بالمشكلة ويضيء دربها والشعراء في ذلك متفاوتون في ذلك, فمنهم من يقف عند الظاهر لا يكاد يتعداها , ومنهم من أُوتـِي قدرة على النفاد إلى جوهر المشكلات العصرية وصياغتها شعرا [١١]

والجواهري في أناه المتحدية قد تحدى السلطة الظالمة في كل العصور ، ويقول في إحدى قصائده التي عنوانها (تحية ونفثة غاضبة) التي نظمها عام , ١٩٧٣ ألقيت بمسرح محمد الخامس في الرباط [١٢] :

وقلتُ لحاقدينَ عليَّ غيظاً لأنَّي لا أحـبُّ الإحـــــتيالا ((الوافر))

هّبـُوا فالقوافي في حماكِم فلا تهزوا بمن يحدو الجمالا

ولا تعدوا الخصامَ يجوزُ حدَّاً بحيثُ يعودُ رُخصاً وابتذالا

وما أنا طالبٌ مالاً لأنَّـي هنالـك تـاركٌ مالاً وآلا

ولا جاهاً فعنـدي منـهُ ارثٌ تليدٌ لا كجاهِهمُ انتـــحالا

ولا أنا من يلوكُ دمَ الأضاحي يلمُّ جلوَها للسُّحـتِ مـالا

وإنَّ لديَّ أرماحاً طـُوالاً ولكنْ لا أحـبُّ الإقتـــتالا [١٣]

لقد دلت الجمل المنفية في النص (وما انا طالبا مالا , ولا جاها , ولا أنا من يلوك دم الأضاحي , لا أحب) عن ذات اتخذت من الإيثار منهجا في الرؤية والتوجه شكلت عنوان الالتزام في شعر الجواهري , فرغباته وطموحاته أخذت تتلاشى أمام رغبات وأهداف الجماعة وأهدافها, وبذلك تحوَّل الشعور الوجداني

الفردي والشخصي إلى وجدان يصوّر الهم الجماعي ويصف معاناته , وهنا قد تجمّعت لدى الجواهري العوامل والمسببات التي جعلت منه شاعراً ملتزماً بقضايا عصره ومجتمعه فلم يكن بالشاعر الذي يسعى لطلب المال والجاه وإنما سعى ضمن مسيرة شعرية وأدبية استطاعت أن تتخطى الأنا وتتجاوز الذات, منطلقة نحو غالى فضاء الإنسانية الرحب والواسع , فلم يكن بالشاعر الذي يحابي ويجامل على حساب مجتمعه وقضاياه المصيرية وإنما شن حربا ضروسا سلاحها الكلمة لتكون أرماحاً طوالا تفقأ أعين الطغاة وهدم عروشهم الهاوية وبهذه الصراحة المعلنة التي باتت ظاهرة بارزة في أسلوبه الشعري قد جعلت القاريء يعيد رسم الوظيفة التي يؤديها المنجز الشعري عند الجواهري وسائر الشعراء الملتزمين , صياغة تناغم العصر بكل مظاهره وصراعاته , وللدلالة على ذلك التحول أن شن الشاعر حربه على الطغاة من الحكام ((لعناً وتقريعاً و تنكيلاً)) لسياسة دولتهم العاجزة الظالمة وقد كلفه ذلك الكثير حيث الغربة والتشريد والمعاناة والتنكيل والتشكيك بوطنيته خلال شنهم حملات إعلانية معادية للشاعر وعلى كل القوى الوطنية والأقلام الندية الشريفة , وبهذه المواقف استطاع الشاعر أن يبين للقاريء عمق التناقض الذي عبر عنه تمردا ورفضا بين ذاته الشاعرة الملتزمة وبين السلطة السياسية التي عدها العامل الأساس والرئيس لواقع مجتمعه المزري , عن تلك المعاناة كتب الشاعر قصيدة في ثمانينيات القرن الماضي بعنوان و يقول فيها :

وسائلةٍ أتتني تُسّبُّ جهـراً ألست مـحجَّ شبـانٍ وشيبِ ((الوافر))

الست خليفةَ الأدبِ المصفَّـى الستَ منـارةَ البلـدِ التليـدِ

أيسرحُ شاتموكَ بلا حسيـبٍ وتسمعُ من هنـاك بلا نسيـبِ

أقولُ لها ألا أكفيكِ عبئـاً ألا أنبيكِ بالعجبِ العـجيبِ

لقد هجتِ اللواعجَ كامنـات وقد نَغرّت بالجـرحِ الرغيـبِ

برئتُ من الزحوف وان تلاقتْ تسدُّ عليَّ منعطفَ الـدروبِ

زحوفُ الرافدينِ فقد تـهزَّتْ بهُنَّ زواحـفُ البلـدِ الغريبِ(١٤)

فالجواهري عبر تلك الحوارية الخيالية استطاع بطريقة درامية أن يكشف ما يعتري ذاته من صراعات وألام وأزمات نفسية ارتبطت جديا بالخارج المأزوم تحقق له ذلك في نصه من خلال توظيفه الفني لجملة من التساؤلات جاءت على لسان السائلة التي سألته(ألست محج شبان وشيب , ألستَ خليفة الأدب المصفى , الستَ منارة البلد التليد , أيسرح شاتموك).

لقد استطاع الجواهري أن يلج التاريخ بكل عنفوان من خلال فنه بحثا عن **((الخلاص))** أو بديله الكفيل بإحداث انتقالة ثورية إصلاحية,على مستوى الأداء والتجربة والتحول النوعي , لذلك فلم يجد تحقيق ذلك إلاّ من خلال التعرض لرموز الظلم أو المعاناة ، فاستحضرها لإثراء واقعه الشعري الرافض والمتمرد, الذي جاء متساوقا مع ما يحدث ويصير في واقعه الاجتماعي والسياسي , وبتعبير آخر , استطاع عبر منجزه الشعري إحداث تحول بوظيفة الأدب بعامة والشعر بخاصة عبر محاولة جادة تهدف إلى التغيير النوعي , ضمن مفهوم جديد مُتَّجِه إلى تصوير معاناة الذات والفردية بقراءة سعت إلى تغيير مساره الوظيفي نحو مقارعة الطغاة الذين طالما حفل الشعر العربي قديما وحديثا بتمجيدهم والإشادة بتأريخهم المُزَيَّف , سعيا منهم إلى تحقيق مكاسب مادية وفي ذلك يقول محمد مبارك : " اجل هو ذاك فيما اختار لنفسه من دور اضطلع به من مهمة تاريخية ففي عام كتابة هذه القصيدة تظل أزمة النظام مداها , وتبلغ النفوس حناجرها ضيقاً بالأوضاع نقمة عليها ورفضاً لها وتطلعاً إلى التغيير العاصف دون أن تجد هذه الأزمة ما يفرّجها أو يفجرها , وتلك النفوس من يستطيع أن يُوقد الشرارة فيها ... ويصل الشاعر باحتدام داخله حد الاختناق فلا يجد ما يفرّج كربه ويزيح أحزانه سوى أن ينتفض هو لوحده بوجه النظام الذي وتره وتحداه مستعيضا بنفسه عن الجموع ... واعياً بأسباب التحول وقواه وضروراته فلا جرم أن يتدفق قصيده والشاعر على هذا النحو من التأزم بمثل هذا العنف في الإيقاع وتلك الصور المتفجرة بالغضب وذلك النزاع الملحمي الذي يحكم بناء القصيدة في وحدة متراصة , ذلك أن صفة هذا التدفق إنما هي انعكاس لما كان عليه واقع الناس في العراق من فوران وغضب وعنف في مواجهة النظام إبان وثبة كانون حتى عام كتابة القصيدة " [١٥] .

الخاتمة :

شكلت الأنا في شعر الجواهري ظاهرة تستحق الوقفة والتأمل ، فمن خلال النماذج الشعرية التي وقفنا عندها وجدنا أن الجواهري أخذت شخصيته تتكشف من خلال شعره ، فكشفت لنا أنه شخصية متعالية متحدية في الوقت نفسه ، لما مرّ به من ظروف معيشية سياسية واجتماعية ، فهو متعالي على الذين يراهم دونه في المستوى الثقافي والشعري ، ومتحد كونه شاعرا قارع الظلام وطغاة عصره ، فلم تأخذهم به لومة لائم ، فجاءت الأنا ضمن نسيج شعري ، يربط السبب بالنتيجة والمقدمة بالخاتمة ، فجاء النسيج الشعري هذا ليعكس قوة التحدي وعنفوان الذات ، فهو شاعر شامخ لا يرضخ ، لذلك لا يعرف الاستسلام بالمطلق .

المصادر :

١- الجواهري شاعر العربية ، عبد الكريم الدجيلي ، دار الحرية ، ١٩٧٥

٢- الجواهري جدل الشعر والحياة ، عبد الحسين شعبان ، دار القلم ، ٢٠٠٨

٣- الجواهري دراسة ووثائق ، محمد حسين الاعرجي ، بغداد ، ١٩٨١

٤- الجواهري في العيون من أشعاره ، دار المسرة ، الأردن ، ٢٠٠٢

٥- دراسات في الشعر العربي الحديث ، سالم ذو النون محمد ، دار المعارف الأدبية ، المغرب ، ٢٠٠٩

٦- ديوان الجواهري ، منشورات وزارة الثقافة والاعلام ، علي جواد الطاهر وآخرون

٧- الشعر و الفكر عند العرب , ا.د. سعيد عدنان ، مطبعة جامعة الكوفة ، ٢٠٠١

٨- الشعر والسياسة ، مجيب ناصر اليحمدي ، دار العلوم ، مصر ، ٢٠٠٨

٩- في رحلة الفكر والتحول ، هادي العلوي / في ضمن محمد مهدي الجواهري (دراسات نقدية) ، دار الحرية ، بغداد ، ١٩٧٩

١٠- الوعي الشعري ومسار حركة المجتمعات العربية , محمد مبارك ، دار المعرفة ، مصر ، ١٩٩٨

١١- ديوان الجواهري ، تحقيق : علي جواد الطاهر وآخرون .

الهوامش

(١) ينظر : أفلاطون في السفسطائيين والتربية، محاورة " بروتاجوراس" ترجمة وتقديم :د . عزت قرني، دار قباء لطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة ، د.ط ، ٢٠٠١: ١١ .

(٢) المنهج النفسي في النقد، دراسة تطبيقية على شعر أبو الوفا عبد الجواد المحمص، مجلة الحرس الوطني، السعودية، العدد: ١٥٥: ٨٠

(٣) ينظر: دليل الناقد الأدبي، إضاءة لأكثر من سبعين تياراً أو مصطلحا نقدياً معاصراً، د. ميجان الرويلي ود. سعد البازعي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط٣، ٢٠٠٢: ٣٣٣.

(٤) ينظر: مناهج النقد المعاصر، د. صلاح فضل، ميريت للنشر والمعلومات، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٢: ٦٧.

(٥) ينظر : الجواهري جدل الشعر والحياة ، عبد الحسين شعبان : ٣٢١

(٦) ينظر : المصدر نفسه : ١٢٣

(٧) الديوان: ٢-٥٦.

(٨) الجواهري دراسة ووثائق : ٢٣٠ .

(٩) الديوان : ٣- ٤٠١ .

(١٠) ينظر في رحلة الفكر والتحول ، هادي العلوي / في ضمن محمد مهدي الجواهري (دراسات نقدية) / ٢٩ .

(١١) ينظر : الشعر و الفكر عند العرب , ا.د. سعيد عدنان : ٢٧ .

(١٢) المصدر نفسه : ١٤٨ – ١٤٩.

(١٣) الجواهري في العيون من أشعاره : ٥٨٧.

(١٤) الجواهري في العيون من أشعاره : ٦٧٩.

(١٥) الوعي الشعري ومسار حركة المجتمعات العربية , محمد مبارك : ١٣٦ .